افتقار اللغات قاطبة

الى الاستعانة بالاشارات واللهجات

Nécessité des gestes dans la Conversation.

يستحيل ان تظفر على وجه المعمورة بانسان ينبعث للكلام هنية، فلا يحتاج الى الاستعانة في تأدية اغراضه بحركات ، ولهجات باصوات متباينة الاجزاء ، صعودا وهبوطا ، وشدة ولينا ، للدلالة على النفي والاثبات ، والرفض والقبول، والامر والنهي ، والسخط والرضى ، والجلد والجزع ، الى غير ذلك .

ولعل هذه الحالة ورثها البشر عن عهد كان يؤدي فيه مقاصده بالاشارات، تصحبها اصوات غير هجائية أو هجائية احادية ثم ثنائية حتى بلغ الكمال في التعبير؛ لكنه كمال نسبي لا حقيقي ، اذ لو كان حقيقيا ، لاستطاع الانسان ان يعبر عن جميع مقاصده مستغنيا عن الاشارات واللهجات وهذا ما يخالفه الواقع .

فلو فرضنا ان انسانا كلف الاعراب عما يدور في خلده، على شرط سكون جوارحه ، وهدوء عينيه ، وركون اساريره ، واستمر حديثه بضع دقائق ، لوجدت علائم الضجر بادية على وجهه، ولا يقتصر الضجر على المحدث، بل يشاركه فيه المصغون الى حديثه فيستفزهم الملل كما انه لا يطمئن الى حديثه في اماطة اللثام عن رغائبه كما يجب .

وهـذا الافتقار يختلف باختلاف المواضيع ، فمنها ما يحتاج المحدث الى الافتنان فيه ، كأن يكون الموضوع خطابيا ، أو تمثيليا ، يراد به حسن الوقع في النفوس ؛ فكم من رواية كرر تمثيلها فاستملحت تارة، واستهجنت تارة اخرى مع ان الالفاظ واحدة ؛ لكن الذي القى تلك الالفاظ في احدى المرات كان امهر في اتقان الحركات والتفنن في الاشارات ممن القاها في المرة الاخرى .

إلا ان الافتنان في مثل هذا امر فضلة لان التأثير وحسن الوقع ليسا من غايات الكلام المباشرة ، فان فقرات الرواية تفهم بمجرد القائها ، سواء اتفنن فيها ، أم لم يتفنن ؛ بل الغاية المباشرة للكلام هي الافهام لا غير .

فلنجعل موضوع بحثنا قضية الافهام فحسب ، بيد ان ذلك لا يعيننا على انقاذ اللغات من النعت بالافتقار .

الا ترى انك اذا قلت : « ما اخذت كل الدراهم » مثلا احتمل كلامك وجهين : أنك اخذت بعض الدراهم ، وانك لم تأخذ منها شيئا . وتضطر في التعبير عن المقصد الاول الى اظهار شدة الارتباط بين الفعل والمفعول به ، بتعجيل النطق بالكاف بعد التاء ، وتضطر في التعبير عن القصد الثاني الى احداث فترة لطيفة بينهما .

نعم ان الناطق ليفعل كل ذلك بسائق الفطرة دون الانتباه لسرها الخفي. ففي الفرض الاول اعتبر ان الجملة كانت في الاصل مثبتة ، ثم ادخل عليها حرف النفي ، اي ان اصل الكلام كان : « اخذت كل الدراهم » ثم سلط السلب عليه لئلم كلية الاخذ ، فانقلبت جزئية فكانت تقوية الاتصال بين الفعل ومفعوله إيذانا بأنهما مقترنان من قبل ، اي قبل ادخال حرف النفي ، ولو لا ذلك ، لما انتقل ذهن السامع الى الغرض .

وفي الفرض الثاني احدث فترة بين الفعل ومفعوله ، للدلالة على ان الفعل ، انما سلط على المفعول به بعد مصاحبته للسلب .

ومن هذا الباب قول الترك : « بر آلما يدم » مثلا ، وذلك انهم قد يقرنون الكلمة بلفظة « بر » للدلالة على الوحدة ، وقد يقرنونها بها للدلالة على التنكير . فترجمة العبارة السابقة : « اني اكلت تفاحة واحدة » أو « اكلت تفاحة » فاذا اراد المتكلم المعنى الاول نطق بالراء بازعاج كأنه يحاول مصادمة مدع انه أكل اكثر من ذلك ، واذا اراد المعنى الثاني نطق بها بهدوء وسكون لانه لم يقصد بلفظة « بر » معناها الاصلي المستحق للاهتمام ، بل اتى بها لتكون امرا عرضيا كالتنوين في اللغة العربية .

ولعل من دواعي اختراع البشر للموسيقى ، عجز اللغات عن ترجمة ما تفيض به العواطف ، مما لا يستطيع اللسان ترجمة اكثره ، اذ تكتظ الجوانح بما لا قبل لها به وتضطر الى نفث ماعندها طلبا للتخفيف عن النفس واذ لاتصادف بغيتها عند اللسان ، تفزع الى الآلات التي يكل اللسان عن مجاراتها ، من عود اخرس، ووتر ابكم ، اذا اجتمعا كانا افصح ناطق .

محمود الملاح